الغاية الإيمانية

في تدبر الأيات القرآنية

د. فاطمة عبد اللّه صالح

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العزيز الوهاب الذي أنزل على عبده ورسوله محمد الكتاب، هدى وذكرى لأولي الألباب، وأودع فيه من العلوم النافعة والبراهين القاطعة والدلائل الجلية والأحكام الشرعية، وحفظه من التغيير والتبديل مهما طال الدهر وتوالت الأحقاب، وجعله معجزة خالدة يشاهدها من عاش في زمن الوحي ومن غاب، فهو حجة للمؤمن الأواب، وحجة على الكافر المرتاب، وهو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم من سلكه وعمل به فله البشرى والثواب، ومن أعرض عنه فله معيشة ضنكا ويحشر في الآخرة عند الله أعمي، وصلى الله وسلم وبارك على محمد المصطفى من أطهر الأنساب وأشرف الأحساب الذي أيده ربه بالمعجزات الباهرات وعلى آله وصحبه الأكرمين خير أهل وأصحاب الذين وعدهم ربهم – سبحانه – بالنصر والتمكين و أورثهم الجنة وحسن المآب وبعد

فالغاية الأساسية من نزول القرآن تكمن في تدبر آياته والعمل بما جاء فيه من الأوامر والنواهي، وتحكيمه في ساحة الحياة ،فهو ليس كتاباً للقراءة فحسب، بل جعله الله نوراً وهدى للناس ليعملوا بما فيه وليلتزموا حدوده، قال تعالى: (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) (الأعراف:٣ وهو الروح قال تعالى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)الشورى٥٢ ومن ابتغى من القرآن غير ما أنزل لأجله فقد تنكَّب سواء السبيل، وضل عن هدي رب العالمين: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} (طه:١٢٤) وهو النور قال تعالى { قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم.}

وترك العمل بالقرآن والإعراض عنه نوع من أنواع هجره الذي حذرنا الله منه وذم فاعله، قال تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً} (الفرقان:٣٠) ففي هذه الآية أعظم تخويف لمن هجر القرآن العظيم، فلم يعمل بما فيه من الحلال والحرام والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من الزواجر والقصص والأمثال. والقرآن الكريم دستور حياة وفيه الهداية والقوامة لكل مجالات الحياة قال تعالى:{ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم}(الإسراء:٩)فالقرآن منهج هداية يشمل الهدى أقواما وأجيالا بلا حدود من زمان أو مكان ؛ ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق ، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان. يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض ، ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين

ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم ، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض ، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله ، ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعا بالحياة. ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة ، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء . ولا تسهل وتترخص حتى تشبع في النفس الرخاوة والاستهتار . ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.
ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض:أفرادا وأزواجا ، وحكومات وشعوبا ، ودولا وأجناسا ، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى ، ولا تميل مع المودة والشنآن ؛ ولا تصرفها المصالح والأغراض

.الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه ، وهو أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل ، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان

.ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها ، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام.

{ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما} (الإسراء:٩، ١٠) .

فهذه هي قاعدة القرآن في العمل والجزاء فبالإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه . فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل بلا إيمان . الأول مبتور لم يبلغ تمامه ، والثاني مقطوع لا ركيزة له . وبهما معا تسير الحياة على التي هي أقوم . . وبهما معا تتحقق الهداية بهذا القران ،وهكذا يكون القرآن منهج حياة يطبق في الحياة العامة والخاصة يطبقه المؤمن بينه وبين نفسه في علاقته بربه وفي علاقته بالآخرين وأن يكون هذا المنهج مصحوب بالإخلاص والعمل الجاد،والقرآن منج حياة يطبق في كل مجالات الحياة ، في السياسة في الاقتصاد في الحياة الاجتماعية في العلاقات الدولية وأن يكون شعارنا دائما وأبدا القرآن دستورنا

ومن هنا تكمن أهمية تدبر القرآن وأثره في حياة الأمة وبعد أن استخرت الله – سبحانه – وجدت رغبة في نفسي وطمأنينة في قلبي وشرح الله صدري لبحث ودراسة موضوع من الموضوعات التي تتعلق بتدبر القرآن وأثره في حياة الأمة. كما أن من جملة الدوافع القوية التي دفعتني لبحث هذا الموضوع هي :

* حاجة الواقع المعاصر لبيان أهمية تدبر القرآن وأثر ذلك في حياة الأمة
* شرف مصاحبة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في معالجة ما يتعلق بالإنسان ديناً ودنيوياً
* القرآن الكريم فيه شرف الأمة، ولا يتحقق ذلك إلا إذا طبقت أحكامه وعملت بمضامينه
*أن الأمة الإسلامية لن يرجع لها حقها المسلوب من السيادة والريادة والعزة والكرامة إلا بالرجوع الحقيقي إلى كتاب ربها وسنة نبيها وعصر الصحابة والتابعين خير شاهد على ذلك

* القرآن الكريم يبعث بين الأمة التراحم والتواد بين أفرادها ، وينشر العدل والإنصاف والمساواة ،وإثبات الحقوق لأصحابها مما يزيد الأفراد خشية لربهم وتضرعا إليه ،فتزداد الأمة إيمانا ويقينا ، وتلتفت إلى عدوها فتعد له العدة ولا تفرط ، ولا تتهاون في حقوقها ، ولا تخضع ولا تذل إلا لربها فتكون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وكان منهجي في البحث والدراسة على النحو التالي :

أولاً :- قمت باستخراج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تبين الغاية الإيمانية من تدبر الآيات القرآنية.

ثانياً :- شرحت الآيات القرآنية التي تبين أهمية الغاية الإيمانية من تدبر الآيات القرآنية واستخراج المعاني السامية واللآلئ المكنونة من أمهات كتب التفسير

ثالثاً :- استنبطت من خلال أقوال المفسرين والعلماء المحدثين مدى أهمية تدبر القرآن واستخراج أسراره المكنونة وفتوحات أنواره التي أضاءت للبشرية طريق حياتها.

رابعاً :- قمت بتخريج الأحاديث النبوية من أمهات كتب الصحاح .

وجاء البحث بعنوان (الغاية الإيمانية من تدبر الآيات القرآنية)

ويشتمل على مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة ،أما المقدمة فهذه وأما التمهيد فيدور حول تأصيل القرآن لقضية التدبر والتفكر،وقد جاء المبحث الأول بعنوان (غاية التدبر لأخذ العظة والعبرة)

وأما المبحث الثاني فعنوانه(غاية التدبر لأجل النظر والتفكر وإعمال العقل

وأما المبحث الثالث فعنوانه (غاية التدبر لأجل إستيجاش الإيمان في نفس الإنسان)

وأما الخاتمة فقد بينت فيها النتائج المستخلصة من البحث وذكر بعض التوصيات

التمهيد

الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا والصلاة والسلام على من أرسله ربه رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد

فإن الله أنزل كتابا جعله للناس شرعة ومنهاجا ،وأمرنا بتدبره فقال سبحانه {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} ١

في هذه الآية بين —سبحانه – أن الغرض الأساس من إنزال القرآن هو التدبر والتذكر لا مجرد التلاوة فقط

فالقرآن أنزل لحكم بالغة ، ومنها حكمة تدبره ،ومن حكم تدبره ، استخراج أحكامه، والانشغال بمعرفه مضامينه ومن ثم متابعة أوامره والحذر من الوقوع في نواهيه،

وما أجمل ما قاله بن القيم في أهمية تدبر القرآن والوقوف على أسراره ومعرفة مضامينه فقال رحمه الله "ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده من تدبر القرآن

وجمع الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها وعلى طرقاتهما وأسبابهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتتل في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله وما يحبه وما يبغضه وصراطه الموصل إليه وقواطيع الطريق وآفاته، وتعرفه النفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة.

فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما يختلف فيه العالم، وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال، وتعطيه قوة في قلبه وحياة واسعة وانشراحاً وبهجة وسروراً فيصير في شأن والناس في شأن آخر؛ فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام وتوقفه عليها؛ لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتناديه

١- سورة ص آية ٢٩

كلما فترت عزماته: تقدمَ الركبُ، وفاتك الدليل، فاللحاقَ اللحاقَ، والرحيلَ الرحيلَ) .

فاعتصم بالله واستعن به وقل: (حسبي الله ونعم الوكيل)٢

وتكمن أهمية تدبر القرآن في الامتثال لأمر الله سبحانه فلقد أمرنا بذلك فقال تعالى {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}٣ قال البيضاوي في تفسيرها "أي يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يجسروا على المعاصي"٤ كذلك أنه سبب لشحن النفوس نحو الخير والبعد عن الشر فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام يكررون الآية الواحدة مرات ومرات بقصد التدبر ، والتدبر يعني الإهتمام ثم التطبيق والممارسة ،فتدبره سببا في تغير حياة كثير من الناس ،غذن فقيمة القرآن الحقيقية تكمن في قدرته على التغير وهذا يؤدي إلى فهم معانيه والتأثر بها والعمل بمقتضاها ، ولا خلاص لأمتنا أن تستعيد مجدها وشهودها الحضاري إلا أن تعيد تنظيم علاقتنا مع القرآن الكريم وفق المنهج الذي ارتضاه الله لنا وهذا المنهج يكمن في قوله سبحانه{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}٥

فتدبر القرآن يحمل على الاستجابة والانقياد لأمر الله ، كما أنه يدعوا إلى التذكر والاتعاظ وعلى الفهم الكامل والعمل الجاد الموصول الذي لاينقطع ولا يزول من أصحاب النفوس الصافية التي صفت بنور الإيمان وتدبر آيات القرآن والقلوب العامرةباليقين والوقوف على آيات الذكر الحكيم ،وصدق الله العظيم حيث يقول {إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}٦

يقول القاسمي"وخص «المتقين» لأنهم المنتفعون بنتائج التدبر فيها، فإن الداعي إلى النظر والتدبر إنما هو تقواه تعالى، والحذر من العاقبة."٧

فأهمية قضية تدبر القرآن الكريم

٢-ينظر مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين١/٤٥١

لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت

الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦

٣- سورة النساء آية ٨٢

٤- تفسير البيضاوي ١٢٣/٥ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ

٥- سورة محمد آية ٢٤

٦- سورة يونس آية ٦

٧- محاسن التأويل للقاسمي٧/٦ طبعة دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى١٤١٨هـ

هي الأصل الأول التي يدور علية أسمى معاني الإيمان ،فلا يمكن لمسلم أن يقف على أوامر ونواهي القرآن إلا بالتدبر، ولا يمكن فقه أحكامه واستنباط شرائعه إلا بالتدبر،ولا يمكن الإستفاده بعبره وعظاته إلا بالتدبر

فاللهم ارزقنا تدبر كتابك ومعرفة مضامينه وفقه شرائعه والوقوف على أحكامه والعمل بأوامره واجتناب نواهيه اللهم آمين

المبحث الأول :
[غاية التدبر لأخذ العظة والعبرة]

توطئة:

الله سبحانه أنزل القرآن الكريم وجعله دستور حياة لخير أمة أخرجت للناس ،والقرآن جامع لكل فضل وأساس لكل علم فهو تبيان لكل شيء ،فعلوم الأصول وعلوم الفروع والأحكام وعلم الأخلاق والآداب ،وعلوم الكون وكل ما يحتاجه الخلق إلى قيام الساعة بينه ذلك الكتاب العزيز فهو المرجع في جميع الحقائق الشرعية والعقلية ،والقرآن الكريم بأوامره ونواهيه وشرائعه وأحكامه وتعاليمه وآدابه ،وقصصه وما فيها من وقائع وأحداث وأمثاله لهي موطن للعظة والعبرة لا سيما في قصص القرآن وأمثاله، وعلى ذلك فالهدف من القصص في القرآن التقاط مواضع العبرة والعظة واتخاذ الأسوة من تاريخ الرسل ،والنفس مجبولة على التأسي بغيرها،والاعتبار بما يحدث لمن حولها ولذلك فقد اعتنى القرآن الكريم بالقصص عناية كبيرة لنأخذ منها العظة والعبرة ،كذلك قصص القرآن فيها قوة تأثير على سامعيها وقارئيها فهي قصص واقعية مؤثرة ،لا سيما حينما تتكلم عن منهج الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام

من هذا المنطلق يمكن القول بأنه لا خلاص للأمة الإسلامية مما هي فيه من بعد عن روح الإسلام وما أصابها من وهن وتخاذل إلا بالرجوع إلى القرآن وتدبر هو التقاط عبره وعظاته، وأن تتخذ منها منهج حياة ، لأن الله سبحانه وتعالى إنما أوردها من أجل ذلك ،وحتى لا تقع هذه الأمة فيما وقعت فيه الأمم السابقة التي تنكبت عن المنهج الصحيح الذي رسمه الله عز وجل لها ،ثم كانت العاقبة العذاب والنكال والبوار والخسران ،فإن في أخبار الأمم الماضية ما يكفي للعظة والعبرة وصدق الله العظيم إذ يقول {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}٨

ونعرض على سبيل المثال لا الحصر لبعض قصص وصورمن أمثال القرآن لاستخراج موطن العظة والعبرة منها على ضوء تدبر آيات الكتاب العزيز

"فلقد عرض القرآن لكثير من قصص الأنبياء السابقين، مقتصرا على مواضع العظة والعبرة، مكتفيا من القصة بما يحقق الهداية، ويوحي بمتابعة الحق والإيمان.

٨- سورة العنكبوت آية ٤٠

ولذا لم يتعرض للتفصيل، فلم يذكر تاريخ الوقائع، ولا اسماء البلدان التي حصلت فيها، ولا اسماء الأشخاص الذين جرت على يدهم بعض الحوادث، وانما تخير ما يمس جوهر الموضوع، وما يحرك العقول للتفكير، وينبه القلوب الى الخير، وينفرها من عاقبة الشر"[٩]

فقد قص –سبحانه – وتعالى علينا قصصا كثيرة عن الأنبياء والمرسلين ، والطغاة المتجبرين أبانت حال المرسلين ،عليهم السلام ، وما كابدوا من مشقة الرسالة الإلهية إلى الخلق ، وما آل إليه مصير المكذبين ، فقد سلط الله عليهم العقوبات الدنيوية التي أهلكتهم وصدق الله العظيم إذ يقول على لسان نبي الله شعيب عليه السلام {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ}[١٠]

ويقول سبحانه محذرا الكافرين { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[١١] كما بين . سبحانه . مصير الطغاة والمتجبرين كفرعون وهامان وقارون؛ فهذا فرعون بعد أن أدركه الغرق وحانت ساعة الاحتضار وهو في ذل وصَغار يقول . تعالى .

في شأنه: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [١٢]، بعد أن كان يقول: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى}[١٣].ومن خلال تدبر قصة سيدنا موسى مع فرعون في القرآن الكريم تكمن في تكرارها والحكمة

٩- تفسير مقاتل بن سليمان ٢١٨/٥ لمؤلفه أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى الناشر: دار إحياء التراث – بيروت

الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ

١٠- سورة هود آية ٩

١١- سورة الروم آية ٩

١٢- سورة يونس آية٩٠

١٣- سورة النازعات آية ٢٤

١٤- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج٢٦٧/١٩ المؤلف : د وهبة بن مصطفى الزحيلي

الناشر : دار الفكر المعاصر - دمشق الطبعة : الثانية ، ١٤١٨ هـ

من تكرار قصة موسى عليه السلام يرجع إلى نهاية كل طاغ متجبر ومتكبر ونصرة الله لأنبيائه وأوليائه وأن العاقبة للمتقين يقول الدكتور وهبة الزحيلي" تكررت قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم في سور عديدة، لما تضمنت من العظة والعبرة التي تتجلى في قهر الله أكبر قوة عاتية بشرية وتحطيم جبروت سلطة ظالمة غاشمة، على يد رجل أعزل من السلاح هو وأخوه هارون إلا أنهما قويان بقوة الله، وقوة الإيمان، وعظمة النبوة."١٤ ونستلهم الدروس والعبر في هلاك الظالين ونصر الله لأنبيائه وأوليائه الصالحين وانها سنة من سنن الله التي لاتتبدل ولا تتغير كما قال تعالى { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}١٥

فمن عرف مصير الطغاة والمتجبرين وما جرى للأمم السابقة المكذبة اتعظ وأخذ العبرة إذا كان ذا لب.كذلك من جملة الدروس والعبر المستفادة من هلاك الظالمين أن الله يمهل ولا يهمل وأنه سبحانه أخذه أليم شديد كما قال تعالى{ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَما نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ}١٦

يقول الدكتور وهبة الزحيلي"وفي القصص بيان العاقبة: عاقبة المنكرين وهي اللعن في الدنيا والخسارة في الآخرة، وعاقبة المؤمنين وهي العزة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

وفي إيراد القصص أيضا التنبيه إلى أن الله وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين، فلا يهملهم، بل ينتقم منهم. وفي هذا من العظة والعبرة للأجيال ما يكفي"[١٧]

ننتقل إلى قصة أخرى من قصص القرآن الكريم مختلفة في الشكل والمضمون لنستلهم من خلال تدبر آياتها الدروس والعبر من خلال أحداثها وهي قصة ملكة سبأ المذكورة بتفاصيلها في سورة النمل ومن جملة تلك الدروس والعبر

- فطنة وذكاء ملكة سبأ فهي وإن كان لها حق السيادة على البلاد لم تعتمد على ذلك وإنما أشركت الملأ وهم أهل الرأي والخبرة من قومها

١٥- سورة غافر آيتان ٥١ -٥٢

١٦- سورة هود الآيات ١٠٢: ١٠٤

١٧- التفسير المنير للزحيلي ٢٤٩/٨

- وتظهر فطنتها كذلك في أن بناء الأمم يحتاج إلى قوة وهي وإن كانت مخلوق ضعيف إلا أنها ساندت هذا الضعف واستبدلته بالقوة عن طريق مشاركتها لمن حولها ممن تثق فيهم وأشارت عليهم وأخذت منهم الرأي والمشورة وتبادل الآراء
- قوة شخصية ملكة سبأ ويظهر ذلك في عدم تماديها في الضلال والغي وسرعة الاستجابة لنبي الله سليمان عليه السلام واعترافها بالذنب وتسليم الأمر لله رب العالميين

يقول بن باديس " إن في قصة ملكة سبأ في القرآن لدرساً تتفجر منه ينابيع العظة والعبرة وإرشاداً إلى ما تقوم به الأمم.

ولولا أن هذا الخطاب قد طال ... لآثرنا منها العبر وآثرنا بها العبر. ولكن لا يفوتنا أن نختلس منها إرشادات، وما عليكم بعد ذلك إلاّ أن تتدبروا الآية، ففيها:

١ – نظام الشورى صريحاً لا مواربة فيه.

٢ – وأن بناء الأمم إنما يعتمد على القوة، وقد تكون مؤنثة فلا بد أن يسندها بأس شديد.

٣ – وأن الملأ هم الأشراف وأهل الرأي، وهم أعضاء المجالس الشورية ولعلهم كانوا بالانتخاب الطبيعي أو الوراثي، وهو لا يكون إلاّ في الأمم التي شبت عن طوق البداوة."[١٨]

ومما يجب الإشارة إليه أن تكرار القصة الواحدة في القرآن الكريم يرجع إلى لطيفة بلاغية وهي إبراز الصورة مكتملة الأركان يقول الشيخ الشعراوي في هذا المعنى "إن من يقولون بالتكرار في القرآن الكريم، نقول لهم أن الآيات في الموضوع الواحد ليست تكراراً، إنما هو تأسيس بلقطات مختلفة، كل لقطة تؤدي في مكانها موقعاً من العِظَة والعبرة، بحيث إذا جمعتَ كل هذه المكررات الظاهرة تعطيك الصورة الكاملة للشيء."[١٩]

خلاصة ما سبق أن تدبر آيات الكتاب العزيز لاسيما القصص القرآني يجد المؤمن فيها العبر والعظات يعتبر بدروسها وعبرها أصحاب العقول الواعية ويتعظ بمواعظها كل من كان ذا قلب عامر بالإيمان والعقول الواعية لآيات الرحمان والألسنة الذاكرة بذكر الملك الديان وصدق الله العظيم إذ يقول { لَقَدْ

١٨–تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير١/٤٠٠

المؤلف: عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي الناشر: دار الكتب العلمية بيروت– لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

١٩– الكتاب: تفسير الشعراوي – الخواطر١٦/٩٩٩٤

المؤلف: محمد متولي الشعراوي الناشر: مطابع أخبار اليوم

كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ}[٢٠] وقال في آية أخرى{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}[٢١]

كذلك ضرب الأمثال في القرآن الكريم من جملة الغاية الإيمانية في تدبر الآيات القرآنية لأجل العظة والعبرة فأمثال القرآن تنطوي على فوائد عديدة وثمرات متنوعة عقلها العلماء وتدبرها الحكماء فهي ذكرى للذاكرين وعظة للمؤمنين

ونسوق بعض الأمثال القرآنية وتدبر معانيها لاستخراج ما فيها من عظات وعبر

- قصة مالك الجنتين وصاحبه المذكورة في سورة الكهف ،فإن من تدبر هذا المثل يستخرج موطن العبرة والعظة في أن الله سبحانه وتعالى قد آل حال صاحب الجنتين بسبب غروره وكفره إلى الدمار والخراب والإفلاس بعد الغنى واليسار ورغد العيش وأنه ندم حين لا ينفع الندم حيث صارت جنته خراباً ودمر الله ماله تدميراً وجعل النصر والغلبة لصاحبه المؤمن الفقير وتعجب من حاله صاحبه المؤمن وتنكر لفعلته وبرئ من شركه حين نصحه فلم يسمع لنصحه ووعظه فلم يستجب لوعظه فهذا الحال وتلك الأفعال مما يتعجب منه فينكره العقلاء ويستقبحه الأتقياءفهي ذكرى للذاكرين وعظة للمؤمنين يقول الدكتور وهبة الزحيلي" والقصد من هذا المثل العظة والعبرة، فقد آل حال الكافر المغرور إلى الدمار والإفلاس، لكفران النعم وعصيان الله، وظل المؤمن الفقير على طاعة الله، بالرغم من معاناته الشدائد والمتاعب، فآتاه الله الخلود في الجنة."[٢٢]
- المثل الذي ضربه الله لأهل القرية التي كفرت بأنعم الله في قوله سبحانه{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}٢٣

فأهل تلك القرية التي كفرت بأنعم الله حكى الله عن حالهم بأنهم كانوا مغمورين بالنعم محفوفين بالأمن والأمان والسلامة والاطمئنان ، فبدلاً من أن يشكروا نعم الله ويحافظوا عليها بمراعاة حق الله ، جحدوا نعمه وكفروا بالله فتبدل بهم الحال وتغير بهم المئال من نقيض إلى نقيض بسبب كفران النعم وعدم مراعاة حق الله فيها وهذا يدل على قلة فهمهم وعدم تبصرهم بعواقب

٢٠- سورة يوسفآية١١١

٢١- سورة ق آية ٣٧

٢٢- التفسير المنير للزحيلي ٢٥٢١١٢/١٥

٢٣- سورة النحل آية ١١٢

الأمور، فصاروا عبرة لكل معتبر وعظة لكل متعظ وتعجب من حالهم العقلاء وتنكر لأفعالهم الأتقياء وحقرهم الأصفياء وندم على حالهم الضعفاء ولا حول ولا قوة إلا بالله

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله " الهدف من ضرب المثل هو أن الحق سبحانه يريد أن يوضح لنا أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بشتى أنواع النعم فجحدها ولم يشكره عليها ولم يؤد حق الله فيها واستعمل نعمة الله في معصيته فقد عرضها للزوال وعرَّض نفسه لعاقبة وخيمة ونهاية سيئة فقيد النعمة بشكرها وأداء حق الله فيها"[٢٤]

هذا وضرب الأمثال في القرآن متنوعة ومختلفة فقد ضرب الله الأمثال بالإنسان والنبات والحيوان وإن العجب ليزداد حينما يضرب الله لنا مثلا بالذباب الذي يأنف منه الإنسان ، ويخُصُّه الله بالحضِّ على الإنصات والاستماع إليه بخلاف غيره من الأمثال، فيقول – سبحانه { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }[٢٥]

وترجع الحكمة وراء ضرب المثل بهذا المخلوق الضعيف الحقير إلى الأسرار العظيمة التي أودعها الله فيه فكم أدهشَ هذا المخلوق ألبابَ العلماء والأطباء والصيادلة وذوي المعامل والمختبرات، ولله كم أقاموا فيه من التجارب، وتوصَّلوا إليه من الإعجاز ما يُذهِلُ الألباب ويُحدِقُ بالأبصار، ولا غروَ حينما يُسلِمُ بعضُهم عندما يرى عظمةَ الله في خلق الذُّباب، وكيف أن من أسراره قوة الإحساس في التخلُّص من الضرب بحيث يصعُب صيدُه لما خلقَ الله فيه من هذه الخاصية العجيبة، وكيف أنه في الوقت نفسه يحمِلُ داءً ودواءً بين جناحيه؛ حيث صحَّ بذلكم الخبر عن الصادق المصدوق في قوله: "إذا وقع الذُّباب في إناءِ أحدكم فليغمِسْهُ كلَّه ثم ليطرَحْه؛ فإن في أحد جناحَيْه الداء وفي الآخر شفاء".[٢٦]

وإذا كان هذا هو خلقَ الذُّباب؛ فكيف بخلق الناس، وإذا كان خلقُ الناس هو ما نعلمُه ونُشاهِدُه وما غابَ عنا كل أسراره؛ فكيف بخلق السماوات والأرض، وصدق الله العظيم إذ يقول{ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }[٢٧]

٢٤- خواطر الشيخ محمد متولي الشعراوي١٣/٨٢٤٩ط أخبار اليوم

٢٥- سورة الحج آيتان ٧٣ - ٧٤

٢٦- أخرجه البخاري في صحيحة، باب ذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ،١٣٠/٤ ح ٣٣٢٠ عن أبى هريرة رضي الله عنه ط دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة الأولى١٤٢٢هـ

٢٧- سورة غافرآية٥٧

فأمثال القرآن مليئة بالعظات والعبر عقلها العلماء وتدبرها الحكماء وعمل بمضمونها الأتقياء وصدق الله العظيم إذ يقول{ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ}[٢٨]

وقال في آية أخرى{ لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[٢٩]

ففي الآية الكريمة "حَثَّ عَلَى تَأَمُّلِ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ وَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ التَّدَبُّرِ، فَإِنَّهُ لَوْ خُوطِبَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الْجِبَالُ مَعَ تَرْكِيبِ الْعَقْلِ فِيهَا لَانْقَادَتْ لِمَوَاعِظِهِ، وَلَرَأَيْتَهَا عَلَى صَلَابَتِهَا وَرَزَانَتِهَا خَاشِعَةً مُتَصَدِّعَةً، أَيْ مُتَشَقِّقَةً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ. وَالْخَاشِعُ: الذَّلِيلُ. وَالْمُتَصَدِّعُ: الْمُتَشَقِّقُ. وَقِيلَ: خاشِعاً لِلَّهِ بِمَا كَلَّفَهُ مِنْ طَاعَتِهِ. مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ أَنْ يَعْصِيَهُ فَيُعَاقِبَهُ. وَقِيلَ: هُوَ عَلَى وَجْهِ الْمَثَلِ لِلْكُفَّارِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ) أَيْ أَنَّهُ لَوْ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَخَشَعَ لِوَعْدِهِ وَتَصَدَّعَ لِوَعِيدِهِ وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَقْهُورُونَ بِإِعْجَازِهِ لَا تَرْغَبُونَ فِي وعده، ولا ترهبون من وَعِيدِهِ"٣٠

٢٨- سورة الزمر آية ٢٣

٢٩- سورة الحشر آية ٢١

٣٠- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨٤٤ طدار الكتب المصرية –القاهرة الطبعة الثانية

المبحث الثاني:

(غاية التدبر لأجل النظر والتفكر وإعمال العقل)

توطئة:

المتأمل في آيات الكتاب العزيز يجد دعوة القرآن واضحة في الحث على التدبر لأجل التفكر وإمعان النظر وإعمال العقل في صفحات الكون،وفى الأنفس والآفاق وعند النظر والتفكر يدرك المسلم أن عظمة الخالق متمثلة في عظمة المخلوق وصدق الله العظيم إذ يقول {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} ٣١

كما حثنا على التفكر وإعمال العقل في خلق الإنسان ومراحل تطور خلقه فقال سبحانه{أَلَمْ يَكُنُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى }٣٢وقال في آية آخرى { فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}٣٣

كما دعانا إلى تصفح الكون كله بما فيه وما عليه لندرك قدرة الخالق وأنه المتفرد بالخلق وهو المعبود بحق قال تعالى { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}٣٤

فلنعش مع تلك الآيات التي تدعو إلى التفكر والتدبر وإعمال العقل لنستخرج أسرار الله المكنونة في هذا الكون العظيم

ففي قوله سبحانه{ نَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}٣٥ دعوة من رب العالمين إلى التدبر والتفكر من أصحاب العقول الواعية وذوي القلوب الصافية العامرة بنور الإيمان يقول الشيخ أبي زهرة في هذا المعنى

٣١- سورة آل عمرانالآيتان١٩٠- ١٩١

٣٢- سورة القيامة الآيات ٣٧- ٣٩

٣٣- سورة الذاريات الآية ٢١

٣٤- سورة فصلت آية ٥٣

٣٥- سورة آل عمران آية١٩٠

" إن هذه الآيات تدعو إلى التدبر والتفكر في هذا الكون العظيم، وصانعه الحكيم، ومبدعه ومنشئه من العدم، والآيات: الأمارات الواضحة الدالة على قدرة الصانع وسلطانه وكمال حكمته، واختلاف الليل والنهار هو تعاقبهما، مع تخالف مظاهرهما، فهذا نور ساطع، وذلك ظلام حالك، وفي النهار الشمس التي تمد الأرض بحرارتها وأشعتها، وبها يحيا النبات ويحيا الإنسان، وفي الليل النجوم الزاهرة، والقمر الباهر، وأولو الألباب هم أهل العقول المدركة التي تنفذ إلى لب الأشياء، ولا تكتفي بظواهرها،"[٣٦] وقال تعالى في آية آخرى {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا، أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا، وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا}[٣٧]

"هذه الآيات تلفت نظر الإنسان إلى دليلي الخلق والعناية ويفهم منها العربي في الصحراء أن الأرض تحفظه على ظهرها حيًّا وفي بطنها ميتًا، وأن الجبال تحفظ الأرض من التصدع، وهو فهم يتناسب مع علمه ويؤدي الغاية المقصودة من التدبر والعظمة. وجاء العلماء المختصون اليوم ليتحدثوا لنا عن الجاذبية التي تحفظ الإنسان على سطح الأرض، ويتلاعب بهم ولا يستقرون في مكان، ويتحدث لنا العلماء عن الجبال وعجائبها واختلاف ألوانها وما تحويه من معادن، وكيف أن رواسي كل شيء من تحته إلا الجبال، فإنها رواسي الأرض من فوقها ليكون فيها من المنافع ما لا يعلمه إلا الله، وهذا الفهم العلمي يتناسب مع آيات القرآن ولا ينافيها ويؤدي المقصود من العظة والاعتبار ويظهر النعمة بشكل أوضح.

أما قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ، أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ، نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ}[٣٨]

فالأمي يفهم من هذه الآيات أن الله خلق الشجر الأخضر بقدرته وجعل فيه قابلية للاحتراق لنستفيد منه في الطبخ والتدفئة والاستضاءة ولولا تسخير الله، لذلك ما استفدنا منه، فيجب شكره وعبادته.

وإن العلماء ليحدثونا اليوم عن الطاقة المخزونة في الأرض بشكل فحم حجري أو نفط، والتي ترجع بأصلها إلى الأشجار المدفونة، وإمكانية توليد صور أخرى من النار كالكهرباء التي تستعمل فيما تستعمل به النار تمامًا، هذا الفهم لا يتنافى مع الآية، بل ويجلي النعمة على الناس بشكل أوضح مما

٣٦- زهرة التفاسير٣/١٥٤٦

المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة دار النشر: دار الفكر العربي

٣٧- سورة المرسلات الآيات ٢٥: ٢٧

٣٨- سورة الواقعة الآيات ٧١: ٧٣

٣٩ –ينظر عقيدة التوحيد في القرآن الكريم١/٣٣٩ المؤلف: محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي الناشر: مكتبة دار الزمان الطبعة: الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

٤٠- سورة الغاشية الآيات١٧: ١٩

يوجب عليهم الاعتراف بوحدانية المنعم وعبادته"٣٩ فالكون كله بما فيه وما عليه صفحة مفتوحة أمام أعين الناظرين وعقول العارفين وقلوب الذاكرين الشاكرين لأجل النظر والتدبر وإعمال العقل لإثبات ربوبية الخالق ووحدانيته وعظيم قدرته وجميل صنعه وإسدال ستره ،كما يطالعنا القرآن إلى لفت الأنظار في صفحة هذا الكون إلى عظم بعض مخلوقاته فقال تباركت أسماؤه

{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} ٤٠

ففي هذه الآية الكريمة ينكر الله سبحانه عن إعراض الكافرين عن الإيمان ويذكرهم بعظيم مخلوقاته الدالة على قدرة الله ووحدانيته قال الطبري في تفسير هذه الآيات

" ذِكْرُهُ لِمُنْكِرِي قُدْرَتِهِ عَلَى مَا وَصَفَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، مِنَ الْعِقَابِ وَالنَّكَالِ الَّذِي أَعَدَّهُ لِأَهْلِ عَدَاوَتِهِ، وَالنَّعِيمِ وَالْكَرَامَةِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِأَهْلِ وِلَايَتِهِ: أَفَلَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ الْمُنْكِرُونَ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ، إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خَلَقَهَا، وَسَخَّرَهَا لَهُمْ وَذَلَّلَهَا، وَجَعَلَهَا تَحْمِلُ حِمْلَهَا بَارِكَةً، ثُمَّ تَنْهَضُ بِهِ، وَالَّذِي خَلَقَ ذَلِكَ غَيْرُ عَزِيزٍ عَلَيْهِ أَنْ يَخْلُقَ مَا وَصَفَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ فِي الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ، فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ الْقُدْرَةَ الَّتِي قَدَرَ بِهَا عَلَى خَلْقِهَا، لَنْ يُعْجِزَهُ خَلْقُ ما شَابَهَهَا."[٤١]

ولبيان معنى التدبر ولمزيد من الإيضاح على ضوء الآية الكريمة نقول لماذا خص الله هذه الأشياء الغير متجانسة عن غيرها ولماذا خص الإبل دون غيرها من الحيوانات كالبقر والغنم وغيرها يجيب الرازي فيقول

" لَا جَرَمَ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أُمُورًا غَيْرَ مُتَنَاسِبَةٍ بَلْ مُتَبَاعِدَةً جِدًّا، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْأَجْسَامِ الْعُلْوِيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا حَسَنِهَا وَقَبِيحِهَا مُتَسَاوِيَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الصَّانِعِ الْحَكِيمِ، فَهَذَا وَجْهٌ حَسَنٌ مَعْقُولٌ وَعَلَيْهِ الِاعْتِمَادُ

الْوَجْهُ الثَّانِي: وَهُوَ أَنْ نُبَيِّنَ مَا فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْخَوَاصِّ الدَّالَّةِ عَلَى الْحَاجَةِ إِلَى الصَّانِعِ الْمُدَبِّرِ، ثُمَّ نُبَيِّنَ أَنَّهُ كَيْفَ يُجَانِسُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

أَمَّا الْمَقَامُ الْأَوَّلُ: فَنَقُولُ الْإِبِلُ لَهُ خَوَاصٌّ مِنْهَا أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ الْحَيَوَانَ الَّذِي يُقْتَنَى أَصْنَافًا شَتَّى فَتَارَةً يُقْتَنَى لِيُؤْكَلَ لَحْمُهُ وَتَارَةً لِيُشْرَبَ لَبَنُهُ وَتَارَةً لِيَحْمِلَ الْإِنْسَانَ فِي الْأَسْفَارِ وَتَارَةً/ لِيَنْقُلَ أَمْتِعَةَ الْإِنْسَانِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَتَارَةً لِيَكُونَ لَهُ بِهِ زِينَةٌ وَجَمَالٌ وَهَذِهِ الْمَنَافِعُ بِأَسْرِهَا حَاصِلَةٌ فِي الْإِبِلِ، وَإِنَّ شَيْئًا مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ لَا يَجْتَمِعُ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ فَكَانَ اجْتِمَاعُ هَذِهِ الْخِصَالِ فِيهِ مِنَ الْعَجَائِبِ وَثَانِيهَا: أَنَّهُ فِي كُلِّ

٤١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣٣٨/٢٤

المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ أَفْضَلُ مِنَ الْحَيَوَانِ الَّذِي لَا يُوجَدُ فِيهِ إِلَّا تِلْكَ الْخَصْلَةُ لِأَنَّهَا إِنْ جُعِلَتْ حَلُوبَةً سَقَتْ فَأَرْوَتِ الْكَثِيرَ، وَإِنْ جُعِلَتْ أَكُولَةً أَطْعَمَتْ وَأَشْبَعَتِ الْكَثِيرَ، وَإِنْ جُعِلَتْ رَكُوبَةً أَمْكَنَ أَنْ يُقْطَعَ بِهَا مِنَ الْمَسَافَاتِ الْمَدِيدَةِ مَا لَا يُمْكِنُ قَطْعُهُ بِحَيَوَانٍ آخَرَ، وَذَلِكَ لِمَا رُكِّبَ فِيهَا مِنْ قُوَّةِ احْتِمَالِ الْمُدَاوَمَةِ عَلَى السَّيْرِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْعَطَشِ وَالِاجْتِزَاءِ مِنَ الْعُلُوفَاتِ بِمَا لَا يَجْتَزِئُ حَيَوَانٌ آخَرُ، وَإِنْ جُعِلَتْ حَمَلَةً اسْتُغِلَّتْ بِحَمْلِ الْأَحْمَالِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي لَا يَسْتَقِلُّ بِهَا سِوَاهَا، وَمِنْهَا أَنَّ هَذَا الْحَيَوَانَ كَانَ أَعْظَمَ الْحَيَوَانَاتِ وَقْعًا فِي قَلْبِ الْعَرَبِ وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا دِيَةَ قَتْلِ الْإِنْسَانِ إِبِلًا، وَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْ مُلُوكِهِمْ إِذَا أَرَادَ الْمُبَالَغَةَ فِي إِعْطَاءِ الشَّاعِرِ الَّذِي جَاءَهُ مِنَ الْمَكَانِ الْبَعِيدِ أَعْطَاهُ مِائَةَ بَعِيرٍ، لِأَنَّ امْتِلَاءَ الْعَيْنِ مِنْهُ أَشَدُّ مِنِ امْتِلَاءِ الْعَيْنِ مِنْ غَيْرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}[42]

وَمِنْهَا أَنِّي كُنْتُ مَعَ جَمَاعَةٍ فِي مَفَازَةٍ فَضَلَلْنَا الطَّرِيقَ فقدموا جملا وتبعوه فكان ذَلِكَ الْجَمَلُ يَنْعَطِفُ مِنْ تَلٍّ إِلَى تَلٍّ وَمِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ وَالْجَمِيعُ كَانُوا يَتْبَعُونَهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الطَّرِيقِ بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ فَتَعَجَّبْنَا مِنْ قُوَّةِ تَخَيُّلِ ذَلِكَ بِالْحَيَوَانِ أَنَّهُ بِالْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ كَيْفَ انْحَفَظَتْ فِي خَيَالِهِ صُورَةُ تلك المعاطف حتى أن الذين عَجَزَ جَمْعٌ مِنَ الْعُقَلَاءِ إِلَى الِاهْتِدَاءِ إِلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ اهْتَدَى إِلَيْهِ، وَمِنْهَا أَنَّهَا مَعَ كَوْنِهَا فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ عَلَى الْعَمَلِ مُبَايِنَةٌ لِغَيْرِهَا فِي الِانْقِيَادِ وَالطَّاعَةِ لِأَضْعَفِ الْحَيَوَانَاتِ كَالصَّبِيِّ الصَّغِيرِ، وَمُبَايِنَةٌ لِغَيْرِهَا أَيْضًا فِي أَنَّهَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا وَهِيَ بَارِكَةٌ ثُمَّ تَقُومُ، فَهَذِهِ الصِّفَاتُ الْكَثِيرَةُ الْمَوْجُودَةُ فِيهَا تُوجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَنْظُرَ فِي خِلْقَتِهَا وَتَرْكِيبِهَا وَيَسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ الْحَكِيمِ سُبْحَانَهُ"[43]

إنَّ كلَّ ما في الكون من الذرة إلى المجرة، آيات عظيمة تدل على وجود الله تعالى ووحدانيته، والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تحث الإنسان على التدبر والتأمل وإعمال العقل في مخلوقات الله الكثيرة، ليزداد إيماناً ويقيناً بمعرفة خالقه وبارئه، ومصوره إن كان مؤمناً، وتدعوه إلى الإيمان عن حقيقة واقتناع، إن كان مشركاً أو ملحدا ننتقل إلى الآيات التي تدعو إلى التدبر والتفكر وإعمال العقل من خلال تطور خلق الإنسان وهو جنين في بطن أمه وكيف سواه وعدله وخلقه في أحسن صورة

ففي النفس الإنسانية من الآيات والدلائل على وجود الله تعالى ووحدانيته ما لا يحصى، قال تعالى: {وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ} ٤٤

٤٢- سورة النحل آية٦

٤٣- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير١٤٣/٣١

المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري ناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ

٤٤- سورة الذاريات الآية ٢١

قال ابن جرير الطبري رحمه الله:" معنى ذلك: وفي أنفسكم أيها الناس آيات وعبر، تدلكم على وحدانية صانعكم، وأنه لا إله لكم سواه، إذ كان لا شيء يقدر على أن يخلق مثل خلقه إياكم {أَفَلاَ تُبْصِرُونَ} ، يقول: أفلا تنظرون في ذلك فتتفكروا فيه، فتعلموا حقيقة وحدانية خالقكم"٤٥ وقال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}٤٦.

وبين أن نفخة من روح الله تعالى في قبضة من التراب، تصنع هذا الكائن العجيب، وهذا دليل قوي وشاهد عظيم على ربوبية الله تعالى ووحدانيته، قال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ} ٤٧

وعن أصل خلق الإنسان، قال تعالى: {فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}٤٨

وقال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}[٤٩]

يقول صاحب الظلال

"إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة، الكاملة الشكل والوظيفة، أمر يستحق التدبر الطويل، والشكر العميق، والأدب الجم، والحب لربه الكريم، الذي أكرمه بهذه الخلقة، تفضلا منه ورعاية ومنة. فقد كان قادرا أن يركبه في أية صورة أخرى يشاؤها. فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة.

وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين، سوي الخلقة، معتدل التصميم، وإن عجائب الإبداع في خلقه لأضخم من إدراكه هو، وأعجب من كل ما يراه حوله.

وإن الجمال والسواء والاعتدال لتبدو في تكوينه الجسدي، وفي تكوينه العقلي، وفي تكوينه الروحي سواء، وهي تتناسق في كيانه في جمال واستواء! وهناك مؤلفات كاملة في وصف كمال التكوين الإنساني

٤٥- تفسير الطبري٥٢٠/٢١

٤٦- سورة فصلت آية ٥٣

٤٧- سورة السجدة الآيات ٧: ٩

٤٨- سورة الطارق الآيات ٥: ٧

٤٩- سورة الإنسان الآيتان ١، ٢

العضوي ودقته وإحكامه وليس هنا مجال التوسع الكامل في عرض عجائب هذا التكوين. ولكنا نكتفي بالإشارة إلى بعضها..

هذه الأجهزة العامة لتكوين الإنسان الجسدي.. الجهاز العظمي. والجهاز العضلي. والجهاز الجلدي.

والجهاز الهضمي. والجهاز الدموي. والجهاز التنفسي. والجهاز التناسلي. والجهاز اللمفاوي. والجهاز العصبي.

والجهاز البولي. وأجهزة الذوق والشم والسمع والبصر.. كل منها عجيبة لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التي يقف الإنسان مدهوشا أمامها. وينسى عجائب ذاته وهي أضخم وأعمق وأدق بما لا يقاس! «تقول مجلة العلوم الإنجليزية: إن يد الإنسان في مقدمة العجائب الطبيعية الفذة وإنه من الصعب جدا- بل من المستحيل- أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف. فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك، ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة. وهذه اليد هي التي تصحح وضعه تلقائيا.

وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع أصابعك تحت الورقة، وتضغط عليها بالدرجة التي تقلبها بها، ثم يزول الضغط بقلب الورقة. واليد تمسك القلم وتكتب به. وتستعمل كافة الآلات التي تلزم الإنسان من ملعقة، إلى سكين، إلى آلة الكتابة. وتفتح النوافذ وتغلقها، وتحمل كل ما يريده الإنسان.. واليدان تشتملان على سبع وعشرين عظمة وتسع عشرة مجموعة من العضلات لكل منهما". ٥٠

وعن أصل خلق الإنسان ومراحل تطور خلقه وهو جنين في بطن أمه يطالعنا القرآن بقول الحق سبحانه وتعالى{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً، فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً. ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ. فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ} ٥١

وعلى ضوء هذا النص الكريم يقول صاحب الظلال:

"وفي أطوار هذه النشأة، وتتابعها بهذا النظام، وبهذا الاطراد، ما يشهد بوجود المنشئ أولا، وما يشهد بالقصد والتدبير في تلك النشأة وفي اتجاهها أخيرا. فما يمكن أن يكون الأمر مصادفة عابرة، ولا

٥٠- في ظلال القرآن٦/٣٨٤٨ المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي الناشر: دار الشروق - بيروت-لقاهرة الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ

٥١- سورة المؤمنون الآيات ١٢: ١٦

خبط عشواء بدون قصد ولا تدبير ثم تسير هذه السيرة التي لا تنحرف، ولا تخطئ، ولا تتخلف ولا تسير في طريق آخر من شتى الطرق التي يمكن عقلا وتصورا أن تسير فيها. إنما تسير النشأة الإنسانية في هذا الطريق دون سواه من شتى الطرق الممكنة بناء على قصد وتدبير من الإرادة الخالقة المدبرة في هذا الوجود.

كما أن في عرض تلك الأطوار بهذا التتابع الدقيق المطرد، ما يشير إلى أن الإيمان بالخالق المدبر، والسير على نهج المؤمنين الذي بينه في المقطع السابق.. هو وحده الطريق إلى بلوغ الكمال المقدر لتلك النشأة في الحياتين: الدنيا والآخرة. وهذا هو المحور الذي يجمع بين المقطعين في سياق السورة.

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» .. وهذا النص يشير إلى أطوار النشأة الإنسانية ولا يحددها.

فيفيد أن الإنسان مر بأطوار مسلسلة، من الطين إلى الإنسان. فالطين هو المصدر الأول، أو الطور الأول.

والإنسان هو الطور الأخير.. وهي حقيقة نعرفها من القرآن، ولا نطلب لها مصداقا من النظريات العلمية التي تبحث عن نشأة الإنسان، أو نشأة الأحياء.

إن القرآن يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالا للتدبر في صنع الله، ولتأمل النقلة البعيدة بين الطين وهذا الإنسان

ذلك أصل نشأة الجنس الإنساني.. من سلالة من طين.. فأما نشأة الفرد الإنساني بعد ذلك، فتمضي في طريق آخر معروف:

«ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ» .. لقد نشأ الجنس الإنساني من سلالة من طين. فأما تكرار أفراده بعد ذلك وتكاثرهم فقد جرت سنة الله أن يكون عن طريق نقطة مائية تخرج من صلب رجل، فتستقر في رحم امرأة. نقطة مائية واحدة. لا بل خلية واحدة من عشرات الألوف من الخلايا الكامنة في تلك النقطة. تستقر:

«فِي قَرارٍ مَكِينٍ» .. ثابتة في الرحم الغائرة بين عظام الحوض، المحمية بها من التأثر باهتزازات الجسم، ومن كثير مما يصيب الظهر والبطن من لكمات وكدمات، ورجات وتأثرات! والتعبير القرآني يجعل النطفة طورا من أطوار النشأة الإنسانية، تاليا في وجوده لوجود الإنسان.. وهي حقيقة. ولكنها حقيقة عجيبة تدعو إلى التأمل، فهذا الإنسان الضخم يختصر ويلخص بكل عناصره وبكل خصائصه في تلك النطفة، كما يعاد من جديد في الجنين وكي يتجدد وجوده عن طريق ذلك التلخيص العجيب.

ومن النطفة إلى العلقة. حينما تمتزج خلية الذكر ببويضة الأنثى، وتعلق هذه بجدار الرحم نقطة صغيرة في أول الأمر، تتغذى بدم الأم..

ومن العلقة إلى المضغة، حينما تكبر تلك النقطة العالقة، وتتحول إلى قطعة من دم غليظ مختلط..

وتمضي هذه الخليقة في ذلك الخط الثابت الذي لا ينحرف ولا يتحول، ولا تتوانى حركته المنظمة الرتيبة."٥٢

المبحث الثالث:

(غاية التدبر لأجل استيجاش الإيمان في نفس الإنسان)

توطئة:

القرآن الكريم هو المعجزة المعنوية الخالدة لخير أمة أخرجت للناس ،أنزله سبحانه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ،ويهديهم إلى الصراط المستقيم ،فهو النور المخلص من ظلمة الجهالة ،ومن ظلمة الضلالة ،ومن ظلمة العمى ، ومن ظلمة التيه والحيرة ،وهو الهادي إلى نور الإيمان واليقين،وإلى بحبوحة الطاعة والإنابة ،وإلى سعة العلم والمعرفة،وإلى طريق الهداية والرشاد، وصدق الله العظيم إذ يقول { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا }٥٣

فالقرآن الكريم مصدر هداية يزيد المؤمنون إيمانا على إيمانهم قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }٥٤

وبتلاوته وتدبره يستجيش الإيمان في نفس الإنسان فيزداد خشوعا وخضوعا للواحد الديان قال تعالى{ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا }٥٥

فهو أحسن القصص وأحسن الحديث وأنه ثنى فيه من الآيات وردد القول ليفهمه أولي الألباب وتقشعر من خشية تلاوته جلود الأبرار الأطهار قال تعالى { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ }٥٦

٥٢- في ظلال القرآن٤/٢٤٥٨

٥٣ – سورة الإسراء آية ٩

٥٤- سورة الأنفال آية ٢

٥٥- سورة الإسراء الآيات ١٠٧: ١٠٩

٥٦- سورة الزمر آية ٢٣

٥٧- سورة ق آية ٣٧

وهو ذكرى وعظة لكل قلب حيا بنور الإيمان{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}[٥٧]

وهو الروح التي تدب في البدن فيحيا بنور الطاعة ،وهو روح العقول يحيها بنور العلم والمعرفة ، وهو روح القلوب يحيها بنور اليقين والإيمان قال تعالى{كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[٥٨]

فالقرآن عظيم ومن عظمته أنه لو أنزل على جبل من الجبال لخشع وتصدع من خشية الله وصدق الله العظيم إذ يقول {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[٥٩] فلنعش مع تلك المعاني بشيء من التفصيل

- فالقرآن هو مصدر زيادة وإستيجاش الإيمان في النفس الإنسانية المؤمنة فهو شفاء لما في الصدور قال تعالى{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}[٦٠] فالقرآن له تأثيرات عجيبة على استثارة المشاعر، والسيطرة عليها، وتوجيهها لله – عز وجل – وليس ذلك فحسب؛ بل إن للقرآن خاصيةً عجيبة لا توجد في غيره، وهي قدرته على جعل مَن يتعامل معه بطريقة صحيحة في حالة دائمة من الهمَّة والنشاط، والإيجابية، وذلك من خلال توليده المستمر للطاقة داخل نفس صاحبه كلما قرأ وتجاوب معه، وتأثرت به مشاعره، هذه الطاقة ستدفعه ليصرفها في أعمال البر المختلفة مما يزيد في إيمان المرء
* وتتأكَّد حاجتنا إلى القرآن الكريم، حينما ندرك يقينًا أن القرآن له دور كبير في علاج أمراض القلوب، فهو روح يحيي القلوب بنور الإيمان ويشفيها من أمراضها التي أصابتها بسبب تسلط

٥٨- سورة الشورى آية ٥٢

٥٩- سورة الحشر آية ٢١

٦٠- سورة يونس آية ٥٧

٦١- سورة يونس آية ٥٧

٦٢- سورة الليل الآيات ٧: ١٠

الشيطان قال تعالى{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}[٦١] ويعرفنا القرآن كذلك بطبيعة النفس، وأنها مستعدة لقبول الخير و الشر لكي تقبل على الخير وتبتعد عن الشر وبفعل الخير يزكي الإنسان نفسه من بوتقة الشر مما يزيد في إيمانه قال تعالى{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}[٦٢]

وعليه؛ فضروري أن يعود المسلم إلى القيمة الحقيقية للقرآن، التي أنزله الله من أجلها كأداة ووسيلة ربانية للهداية والشفاء، والتقويم والتغيير؛ قال – تعالى –: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}٦٣.

* والقرآن له سيطرة على القلوب والمشاعرإذ هو أداة التحول والتغير في حياة الرعيل الأول من صحابة النبي محمد صلى الله عليه وسلم فبعد بيعة العقبة الثانية أرسل – صلَّى الله عليه وسلَّم – مصعبَ بنَ عمير إلى يثرب، ومعه ما معه من القرآن، فماذا حدث؟ دخل النُّور قلوبَ أهل يثرب، فامتلأتْ بالإيمان، وتغيَّرت التصورات والاهتمامات وتوحد الفرقاء، واجتمعوا جميعًا على كلمة واحدة، وتَمسَّكوا بحبل الله المتين – وهو القرآن – فكان منهم ما كان من المستوى العجيب في البَذْل والتضحية والإيثار، كل ذلك حدث قبل مجيئه – صلى الله عليه وسلم – إليهم، والدليل على ذلك ما فعلوه مع إخوانهم المهاجرين من تكافُلٍ وإيثار في الدُّور والأموال والثِّمار، مع فقرهم وشِدَّة حاجتهم، وما كان هذا ليحدث لولا المستوى الإيماني الراقي الذي وصلوا إليه من خلال القرآن .

فقيمة القرآن الحقيقية في قُدرته على التغيير، وهذا بلا شك يستدعي فهم معانيه، وتدبره والتأثر بها، والعمل بمقتضاها، فالقرآن هو رُوح القلوب التي تَحيا به سلامَتُها وزكاتها منه، فمَن تَمسَّك بالقرآن الكريم، فقد نُفخت فيه روح الهداية والتوفيق لكل خير، وقد استنار بالنُّور الذي يبددُ ظلام الجهل، ويهدي صاحبه إلى سواء الصِّراط، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ

٦٣– سورة الإسراء آية ٩

وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[٦٤] قال الطبري في معنى هذه الآية "وكما كُنَّا نوحي في سائر رسلنا، كذلك أوحينا إليك – يا محمد – هذا القرآن روحًا من أمرنا، يقول: وحيًا ورحمةً من أمرنا، واختلفَ أهلُ التأويلِ في معنى الرُّوح في هذا الموضع، فقالَ بعضهم: عَنِي به الرحمة، وقال آخرون: معناه وحيًا من أمرنا، وقوله: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيْمَانُ}، يقول جلَّ ثناؤه لنبيه محمد – صلى الله عليه وسلم –: ما كنت تدري – يا محمد – أيّ شيء الكتاب ولا الإيمان اللذين أعْطَيْناكهما؛ {وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوْرًا}، يقول: ولكن جعلنا هذا القُرآن وهو الكتاب نورًا؛ يعني: ضياء للناس يستضيؤون بضَوْئه، وهو بيانه الذي بيَّن فيه مِما لهم فيه: في العَمَل به الرَّشاد، ومن النار النجاة، نهدي به من نشاء من عبادنا، يقول: نهدي بهذا القرآن، فالهاء في قوله: {بِهِ} مِنْ ذكر الكتاب، ويعني بقوله: {نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ} نُسدد إلى سبيل الصَّواب وذلك الإيمان بالله مَن نشاء من عبادنا، يقول: نهدي به مَن نشاء هدايته إلى الطريق المستقيم من عبادنا"[٦٥]

"فكما أنَّ الروحَ إذا دخلتِ الأبدانَ حرَّكتها وأحيتها، كذلك القُرآن إذا دخل القلوب، فإنَّه يُحْييها ويحركها لخشية الله ومحبته، أمَّا إذا خلت القلوبُ من القرآن، فإنَّها تموت، كما أنَّ الجسمَ إذا خَلاَ من الروح، فإنه يموت"[٦٦]

- ومن أبرز الآيات التي تدل على زيادة واستيجاش الإيمان في نفس الإنسان والتى

تتمثل في قُدرته على التأثير في مشاعر قارئه، واستثارتها بمواعظه البليغة، وقُوة سلطان ألفاظه على النَّفس، مما يزيد الإيمان، ويُولد الطَّاقة الدافعة للقيام بأعمال البر المختلفة بسهولة ويسر، قوله تعالى{قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا *وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا}[٦٧]

ومن هنا تتَّضح لنا أهمية القرآن في استقامة العبد على أمر الله، وأن يكون دائما وأبدا في ظل طاعة وخضوع وخشية لخالقه ومولاه

٦٤- سورة الشورى آية ٥٢

٦٥- تفسير الطبري ٥٤٢/٢٠ط هجر

٦٦- بشراكم يا أهل القرآن ص٥ كتيب من إعداد القسم العلمي بدار الوطن بالرياض بدون طابعة نقلا عن تدبر القرآن لفضيلة الشخ صالح الفوزان

٦٧- سورة الإسراء آيتان ١٠٧: ١٠٨

٦٨- سورة آل عمران ١٩١: ١٩٤

* والقرآن كذلك يعرف العبد بربه، ويربطه به سبحانه؛ ومن تأثير القرآن: أنَّه يعرف العبد بربه إلى أقصى ما يُمكن أن تتحمله قدراته العقلية، ويصل به إلى أقرب ما يمكن أن يكون عليه بشر بعد الأنبياء – عليهم صلوات الله وسلامه – ويقوم القرآن كذلك بربطِ تلك المعرفة بمُجريات الحياة، فلا يرى العبد إلاَّ حكمة الله وراء أفعاله ومشيئته سبحانه، فينعكس ذلك على تعامله معه، حتى يصلَ إلى درجة الإحسان بأنْ يعبدَ الله كأنه يراه، فيناجيه من قريب، ويستشعر قربه منه، وقيُّومِيَّته عليه، فيأنس به، ويزداد شوقه إليه فيكونو كما وصفهم الحق سبحانه وتعالى {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}[٦٨]

* القرآن باعث على خشية الله والفزع إلى ذكره وهذا أثر إيماني مُهم؛ لأنَّه يبعث على استقامة العبد في شتى أموره، وفي كل تصرفاته؛ قال سبحانه: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}[٦٩] .

قال ابن كثيرفي معنى هذه الآية "هذا مدح من الله – عزَّ وجلَّ – لكتابه القرآن العظيم المنَزَّل على رسوله الكريم"[٧٠]

٦٩- سورة الزمر آية ٢٣

٧٠- تفسير القرآن العظيم ٨٣/٧ المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، لناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت

الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ

٧١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٧٧٢/١ لمؤلفه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي لناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م

٧٢- سورة البقرة آية ٢

٧٣- سورة البقرة آية١٨٥

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي" فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن، عُلِمَ أنَّ ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيَه أجلّ المعاني؛ لأنَّه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، متشابهًا في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه، حتى إنَّه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاقه حتى في معانيه الغامضة ما يَبْهَرُ الناظرين، ويجزم أنَّه لا يَصْدُرُ إلاَّ من حكيم عليم"[٧١]

* القرآن هداية لأهله فالقرآن كتاب هداية، والهداية على قسمين: هداية توفيق وعمل، وهي خاصَّة بالمؤمنين، وهداية دلالة وإرشاد، وهذه عامَّة لجميع الناس، والقرآن الكريم يَشتمل على هذين القسمين من الهداية.

فمن القسم الأوَّل قول الله – تعالى –: {ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}[٧٢]

ومن القسم الثاني قوله – تعالى –: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الهُدَى وَالْفُرْقَانِ}[٧٣]

وأي هداية تساوي هذه الهداية؟! إنَّها الهداية للتي هي أقوم، والبشارة للمؤمنين، المتبعين لهدي القرآن، المستمسكين به، وفي ذلك يقول الله – تعالى –: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[٧٤]

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية "يقول تعالى ذكره: إنَّ هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – يرشد ويُسدد مَن اهتدى به، {للتي هي أَقْوَمُ} يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السُّبل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه وهو الإسلام، يقول جلَّ ثناؤه: فهذا القرآن يهدي عبادَ الله المهتدين به إلى قَصْد السَّبيل التي ضل عنها سائرُ أهل الملل المكذبين به".[٧٥]

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي في تفسيره لهذه الآية: "يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته، وأنَّه {يهْدِي للتي هي أَقْوَمُ}؛ أي: أعدل وأعلى، من العقائد، والأعمال، والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن، كان أكمل الناس، وأقومهم، وأهداهم في جميع الأمور؛ {ويُبَشِّرُ المؤْمِنِيْنَ الذِيْنَ يَعْمَلُونَ

٧٤- سورة الإسراء ٩، ١٠

٧٥- تفسير الطبري ٣٩٢/١٧

الصَّالِحَاتِ} من الواجبات والسنن، {أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}، أعدَّه الله لهم في دار كرامته، لا يعلم وصفه إلا هو – سبحانه وتعالى".٧٦.

* القرآن ذكر يبين ويوضح للمؤمنين حظهم ونصيبهم من الإيمان فيطمئنون لرضا الرحمان والفوز بالجنان قال – تعالى –: {... الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النور وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا} [٧٧]

قال الطبري "قد أنزل الله إليكم يا أولي الألباب ذكرًا من الله لكم، يذكركم به ويُنبهكم على حظكم من الإيمان بالله والعمل بطاعته، رسولاً يتلو عليكم آيات الله التي أنزلها عليه، {مُبَيِّنَاتٍ} يقول: مبينات لمن سمعها وتدبرها أنَّها من عند الله، يقول تعالى ذكره: قد أنزل الله إليكم أيها الناس ذكرًا رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات؛ كي يخرج الذين صدقوا الله ورسوله، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} يقول: وعملوا بما أمرهم الله به وأطاعوه، {مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النور}؛ يعني: من الكفر وهي الظلمات، إلى النُّور يعني إلى الإيمان."[٧٨]

* والقرآن يُعوِّد صاحبه الورع في مطعمه ومشربه ومكسبه، ويجعله بصيرًا بزمانه وفساد أهله، فهو يَحُثُّهم على دينه، ويجعل المسلم مُقبلاً على شأنه، مهمومًا بإصلاح ما فسد من أمره، حافظًا للسانه، مميِّزًا لكلامه، إن تكلَّم تكلَّم بالحقِّ والخير، وإن أنصت كان إنصاتُه ابتغاءَ رضوان الله، قليلَ الخوض فيما لا يعنيه، لا يَحْسُد ولا يَغِشُّ، يحفظ – تقديرًا للقرآن – جوارحَه، يتواضع في نفسه، يقبلُ الحقَّ من الصغير والكبير، يطلب الرفعة من الله – تعالى – لا من المخلوقين
مما يزيد في إيمانه و يجعله ملتجأ إلى الله في لحظات الشدة والرخاء

فالقرآن يجعلهم كما وصفهم رب العالمين بقوله{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ}[٧٩]

٧٦- تفسير السعدي ٤٥٤/١

٧٧- سور الطلاق ١٠- ١١

٧٨- تفسير الطبري ٤٦٨/٢٣

٧٩- سورة السجدة الآيات ١٥: ١٩

* القرآن سبب لجلب الطمأنينة ونزول الرحمة وحضور الملائكة:

فالمعلم والمتعلم حينما يعيش كلٌّ منهما في كنف القرآن، ويقدر مجلسه؛ لأنه يدرك تمامًا أن هذا المجلس أرفع مقامًا من أي مجلس دُنيوي، وأعلى ذكرًا من تلك المجالس الدنيوية؛ ولذا جَعَلَ الله لهذا المجلسِ ما جعل من الفضائل والمزايا، التي حين يستشعرها صاحبُها تطمئن نفسه ويهدأ فكره، فيكثر من ذكره لربِّه، ويكثر من فعل الطاعات، ويتقرَّب بالنَّوافل، فيرسخ يقينه ويزداد إيمانه؛ فعن أَبِي هريرة – رضي الله عنه – : أنَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: ((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلاَّ نزلت عليهم السَّكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده))[٨٠]

* القرآن شفاء ورحمة لصاحبه:

ومن الآثار التي تعودُ على العالم والمتعلم أنَّ القرآن شفاء للأبدان والصدور، ففيه الشفاء الحسي والمعنوي.

قال ابن القيم – رحمه الله:" فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كلُّ أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به بصدق وإيمان وقبول تام، واعتقاد جازم واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبدًا وكيف تقاوم الأدواء كلامَ ربِّ الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدعها، وعلى الأرض لقطعها؟! فما من مرض من أمراض القُلُوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه لمن رزقه الله فهمًا في كتابه وأمَّا الأدوية القلبية، فإنَّه يذكرها مفصلة، ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها قال – تعالى –: {أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} ٨١ فمن لم يشفه القرآن، فلا شفاه الله، ومن لم يكفه، فلا كفاه الله"٨٢ وصدق الله العظيم إذ يقول:

٨٠- أخرجه مسلم في صحيحة٤/٢٠٧٤ ح٢٧٠٠ لمؤلفه مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

٨١- سورة العنكبوت ٥١

٨٢- زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/٣٢٣

المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)

الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت

الطبعة: السابعة والعشرون ، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م

٨٣- سورة فصلت آية ٤٤

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} ٨٣

فالقرآن شفاء وعافية ورحمة وهدى للمؤمنين المتمسكين به، فالتمسك بكتاب الله – تعالى – يمد المؤمن بالشِّفاء والعافية والرحمة في الدُّنيا والآخرة.

اللهم إجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور أبصارنا وجلاء همومنا وغمومنا اللهم ذكرنا منه ما نسينا وعلمنا منه ما جهلنا وارزقنا تلاوته وألهمنا فهمة وتفضل علينا بتدبره وخلصنا بنور وحية من ظلمة الفتن وألهمنا بتعاليمه وأحكامه سبيل الهدى والرشاد اللهم آمين.

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله رب العالمين ، فبعد المعايشة الممتعة لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لدراسة هذا الموضوع فإن في تمام الفائدة وإزالة اللبس يجب علينا الوقوف على بعض النتائج والتوصيات مما يزيد الموضوع تألقاً وجمالاً يحس به كل قلب مؤمن ومن جملة النتائج

- آيات القرآن الكريم وما اشتملت عليه من أحكام ومبادئ وقيم وشرائع وقصص وأمثال في مجملها تحمل دروس من العظات والعبر عقلها العلماء وعمل بها الأتقياء
- الكون وما فيه وما عليه صفحة مفتوحة ومليء بآيات الله الباهرة التي تدعو إلى التفكر والتدبر وإعمال العقل لنستخرج أسرار الله المكنونة في هذا الكون العظيم
- أن حقيقة تدبر القرآن: أن يقرأ المسلم كتاب الله بتأمل وتفكر، وعناية وحضور، فيتأمل في أخباره ومواعظه، وأوامره ونواهيه، وأحكامه وآياته، وأن يعزم النية على العمل بما يؤمر، وعلى الانتهاء عما نُهي عنه، وأن يتَّعظ بما فيه من المواعظ والأخبار، ويستحضر ما أخبر الله به عبادَه من أمور المعاد؛ فالخشوع والتدبر هما المقصودان، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تأمل، وبالخشوع والتدبر تنشرح الصدور، وتستنير القلوب
- التدبر يعني الاهتمام، ثم التطبيق والممارسة، وهي النقطة الأهم في حياة الأمة، فإذا تدبرنا القرآن، نقلناه إلى حقول الممارسة، وميادين السلوك.
- أن الأمة الإسلامية لن تستعيد مجدها وشهودها الحضاري –إلا بعد أن نعيد تنظيم علاقتنا مع القرآن الكريم، وفق المنهج الذي ارتضاه الله لنا، وهذا المنهج يكمن في تدبره والعمل بمضامينه
- إن لتدبُّرِ القرآن شأنًا عظيمًا، فهو مادة حياة القلب، وانشراح الصدر، وتجدد الإيمان في نفس الإنسان
- فيه صلاح القلوب فتدبُّر القرآن شفاء من الشبهات والشهوات، وهو من أعظم وسائل الثبات، فبه تطمئن القلوب وتسكن، وبه تقر الأعين
- فيه صلاح العمل: فإن الجوارح للقلب تبع، فإذا خشع القلب للحق، وشفي من الأمراض والأسقام بتدبُّر القرآن، انساقتْ لأوامره الجوارحُ، وظهر ذلك صلاحًا في العمل
- فالقرآنُ له أثر عظيم في استقامة العبد المشتغل به؛ ذلك لأنَّه يعيشُ به دومًا، يقوم وينام وهو يتفكر فيه وفي أوامره ونواهيه، فهو يستولي على مَشاعره وأحاسيسه، فيغير مجرياتها، ويُحول طريقها إلى الأفضل، كما أنَّه يعظه ويذكره، ويكشف له حقيقة نفسه وأصلها، فيشعرها بما

عندها من أمراض، ويُقدم لها ما يشفيها من تلك الأمراض، كما أنَّ القرآن ينير لصاحبه طريقَ الوصول إلى رَبِّه، فيهديه ويَجعله يخشاه بالغَيْب، يرغبه في ثَوابه وجَنَّته، ويُحذره من عقابه وناره.

- ومن أهم التوصيات

أولاً: زيادة الاهتمام بجمعيات تحفيظ القرآن الكريم ماديًّا وأدبيًّا، وزيادة الطرق التي تشجع على حفظ القرآن وخاصة النشء الصغير

ثانيًا: تكثيف الدِّراسات القُرآنية في مراحل التعليم المختلفة، والاهتمام بعلومه.

ثالثًا: إنشاء المراكز القرآنية المتخصصة في العالم الإسلامي، وعقد الندوات واللقاءات التي تخدم القرآن.

رابعًا: توجيه الدعوة لأقطار العالم لتعريفهم بالقرآن ودراسة علومه.

وبعد فهذا جهد المقل فإن وفقت فمن الله ، وما توفيقي إلا بالله ، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان أسأل الله أن يبلغنا الصواب وأن يجنبنا الخطأ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المراجع والمصادر

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي
- بشراكم يا أهل القرآن كتيب من إعداد القسم العلمي بدار الوطن بالرياض بدون طابعة نقلا عن تدبر القرآن لفضيلة الشخ صالح الفوزان
- تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير/
- تفسير الشعراوي — الخواطر المؤلف: محمد متولي الشعراوي الناشر: مطابع أخبار اليوم
- تفسير القرآن العظيم المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، لناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج المؤلف : د وهبة بن مصطفى الزحيلي
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لمؤلفه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي لناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م مفاتيح الغيب = التفسير الكبير المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري ناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ
- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين
- زاد المعاد في هدي خير العباد المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت

- زهرة التفاسير المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة دار النشر: دار الفكر العربي
- صحيح البخاري لمؤلفه محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ط دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية الطبعة الأولى١٤٢٢هـ
- صحيح مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت
- عقيدة التوحيد في القرآن الكريمالمؤلف: محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي الناشر: مكتبة دار الزمان الطبعة: الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م
- فسير مقاتل بن سليمان المؤلف: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى
- في ظلال القرآن المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي الناشر: دار الشروق - بيروت- لقاهرة الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ
- لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت
- محاسن التأويل المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين
- المؤلف: عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي الناشر: دار الكتب العلمية بيروت- لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	**الصفحة**
المقدمة	١ : ٣
التمهيد	٤ : ٦
المبحث الأول : االغاية الإيمانية لأجل العبرة والعظة	٧: ١٣
المبحث الثاني :الغاية الإيمانية لأجل التفكر والتدبر وإعمال العقل .	١٤: ٢٠
المبحث الثالث :الغاية الإيمانية لأجل استيجاش الإيمان في نفس الإنسان	٢١: ٢٨
الخاتمة	٢٩: ٣٠
المراجع والمصادر	٣١